(4)

تفسير المرويات لآيات الاستخلاف

اشتهر تفسير آيات الاستخلاف بالمرويات، والشواهد التاريخية، واكتسب فهم المفسر ظني الدلالة سلطة دينية في أذهان كثير من المسلمين، ولعل ذلك نابع من عدة عوامل:

أولا: ربط المفسر فهمه للآية بمرويات عن النبي ﷺ فأعطى لفهمه سلطة نص، وهذا ما جعل فهم المفسِّر له شبه قداسة في تداول المتأخرين مستمدة من الحديث النبوي الذي يستند إليه المفسر، فما قاله عن دلالة الخلافة أصبح كأنه المعنى الإلهي للكلمة في الخطاب الإسلامي دون أن نشعر أننا نمارس الدينية في أكثر صورها جمودا.

ثانيا: استدعاء السلطة السياسية لهذا الفهم لتجييش الرعية خلفها، والتسليم بسلطتها بوصفها دولة الخلافة الإسلامية التي تحدّث عنها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ثالثا: اعتماد الجماعات الدينية حديثا على هذا التفسير في تعزيز وجودها بوصفها القائمة على تحقيق وعد الله في الاستخلاف والتمكين، وإثارة مشاعر الشعوب للوقوف خلفها في سعيها لاستعادة سلطة (الخلافة الإسلامية) التي يُسوّق شعارها كأنه الحل السحري لواقع متخم بأزمات معقدة يستعصي عليهم الخوض في تفاصيلها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية؛ لذا يلجئون إلى تسطيح توصيف المشكلة في غياب الخلافة الإسلامية، ويختزلون الحلّ في العمل على استعادتها بحيلة السياسة أو بقوة السلاح.

فأُهمل التفسير اللغوي للآية، وكثرت الاستدعاءات الأيدلوجية النفعية لتفسير الآية بالأثر؛ لكونه الأقرب إلى حلم المستضعف الباحث عن الأمنية والأمل في واقع أفضل ليس بيده بل بيد قدر موعود به بقوة النص الشرعي.

فاستند أكثر المفسرين في محاولة فهم استخلاف التمكين في آية سورة النور إلى عدد من المرويات في مقدمتها رواية سبب نزول الآية، بأن بعض أصحاب النبي ﷺ شكا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم فنزلت الآية.

قال أبو العالية: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفًا هو وأصحابه يدعون إلى الله سرا وجهرا، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجل من الصحابة: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح، فقال رسول الله ﷺ: لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة، وأنزل الله هذه الآية» وزادت رواية «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون.»[1]

وأرى أن الآية -في ضوء المروية سبب النزول- لا تحمل أكثر من كونها تبشيرا بذهاب الخوف، والخروج من حالة الاستنفار التام بحمل السلاح،

(1) ينظر: - تفسير الطبري، ج19، ص 211:209. - الجامع لأحكام القرآن. ج12، ص279:276. - تفسير ابن كثير، ج6، 81:78. - محمد الطاهر عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص285:282، ط. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي. أسباب النزول، المسألة 646، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ- 1421م.

فيُعلن المسلم عن دينه دون خوف، وليس في سياق الحديث إشارة إلى زمن أو تخصيص بخليفة أو ملك أو أمير..

غير أن المفسر قرأ الآية قراءة تاريخية زمنية محدودة، وخصّها بسببٍ لاحقٍ، وكأنه سبب للنزول، فجعل جملة «لا تلبثون إلا يسيرا» في المروية إشارة إلى زمن اقترب، فدلالة الآية عنده متحققة في الفترة التالية لعهد النبي ﷺ معتمدا على حوادث التاريخ اللاحقة في فهم مروية سبب النزول، ففسّروا استخلاف التمكين في الآية بالعقود الأربع الأول من تاريخ المسلمين، حيث قوة الجيوش ونشاطها العسكري الجهادي فترة حكم النبي ﷺ وما تبعه في عهود الخلفاء الأربعة، وجعلوا الكفر في الآية في زوال ملكهم، فهو ليس من قبيل الكفر بالله بل كفر بنعمة الله.

وذهب بعض السلف إلى أن الآية نص صريح في خلافة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،[1] وقيدها القرطبي في أحد الأقوال نقلا عن مالك بنهاية خلافة عثمان، ثم عاد وأدخل خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،[2] وجعلها أحمد بن حنبل حتى آخر خلافة الحسن بن علي.

(1) هذا مما نقله ابن كثير في تفسير الآية بقوله: «وقال بعض السلف خلافة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حق في كتاب الله ثم تلا هذه الآية». (تفسير القرآن العظيم، ج5، ص121).

(2) نرى ذلك جليًا في لغة القرطبي مستدلا بالآية على حدث تاريخي متأخر عن الآية، فيقول موافقا الضحاك وابن عربي وغيرهم «هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأن الله استخلفهم ورضي أمانتهم، وكانوا على الدين الذي ارتضى لهم؛ لأنهم لم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا، فاستقر الأمر لهم، وقاموا بسياسة المسلمين، وذبّوا عن حوزة الدين فنفذ الوعد فيهم، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نجز وفيهم نفذ وعليهم ورد ففي من يكون إذًا وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هذا=

ولا يختلف في ذلك ابن كثير صاحب التفسير المعتمد عند التيار السلفي المعاصر، وما انشق عنه من جماعات، فتفسير ابن كثير له حضور قوي في خطاب السلفية المعاصرة لا يقل عن حضور صاحب تفسير «في ظلال القرآن»[1] في خطاب جماعة الإخوان المسلمين، فالاستخلاف في الآية -من

= ولا يكون فيما بعده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.» (جامع الأحكام للقرطبي، ج12ص298:300. وبمثل هذا قال ابن جرير الطبري، فجعل الاستخلاف في الآية في إرث المسلمين الأوائل ملك الأرض من العرب والعجم بإيمانهم وعمل الصالحات كما استخلف الذين من قبلهم من بني إسرائيل إذ أهلك الجبابرة بالشام، وجعلهم ملوكا، فيقول: «أظهرهم الله على جزيرة العرب فآمنوا ثم تجبروا فغير الله ما بهم وكفروا بهذه النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم قال القاسم قال أبو علي بقتلهم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واختلف أهل التأويل في معنى الكفر الذي ذكره الله في قوله فمن كفر بعد ذلك فقال أبو العالية ما ذكرنا عنه من أنه كفر بالنعمة لا كفر بالله..» (تفسير الطبري، ج١٨، ص158:160.)، وجعل ابن العربي وعد الاستخلاف عام إلا أنه لم ينفذ فيما مضى إلا في الخلفاء الأربعة أحكام القرآن لابن العربي. ج3. ص413، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.)

(1) جمع سيد قطب بين التفسير بالدلالة اللغوية والمرويات على نحو أشعر الباحث أنه أمام صوتين مختلفين في تفسير الآية الواحدة، فيقول عن حقيقة الاستخلاف في الآية «ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله. إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!» ثم عاد وجعله بموجب الحديث متحققا تاريخيا في خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل وليس الأربعة «ولقد تحقق مرة وظل واقعا ما قام المسلمون على شرط الله يعبدونني ولا يشركون بي شيئا، فكانوا آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا=

منظـور ابن كثـير- متمثل في الخلفـاء حتى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهـم -على حّد قولـه- الأئمة الذين سيخضع لهم العباد، واستخلافهم من مظاهره إبادة مملكة كـسرى، ومقتلة الأتـراك، والتوسع في بـلاد المشرق والمغـرب، فاستخلاف التمكين عنـد ابن كثير قوة وسيادة امتدت على حسـاب امبراطوريات ذاك الزمـن؛ لذا أخذ يشرح الآية بتتبـع النشاط العسكري للنبي ﷺ وأصحابه مـن بعده، حتى أنه خلـط بين النشاط التوسعي للأمويـين وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فنسـب فتوحـات الأمويـين وما كان مـن معـارك في عهدهم إلى عهده.[1]

= فيه.» (ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، ج4. ص2529،2530 ط. دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، القاهرة. 1423هـ- 2003م.)

(1) «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا وحكما فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر و إسكندرية وهو المقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلمَّ شعث ما وَهَى عند موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأطّد جزيرة العرب ومهدها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام وثالثا صحبة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بلاد مصر ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عَزَّوَجَلَّ واختار له ما عنده من الكرامة ومن على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة=

فربط المفسر التمكين -وفق ثقافة الممالك المتصارعة في عصره- بقوة الجيوش وغلبة المعارك، وهذا هو الفهم الذي أعادت الجماعات الإسلامية بعد مئات الأعوام ممارسته بالوسائل نفسها، فجعلت التمكين والقوة في ميادين المعارك بسلاح لم يصنعوه، وليس في ميادين البحث العلمي وتطوير مناهج الفكر، والقدرة على توجيه إمكانيات الطبيعة في خدمة الإنسان.

وعلة المفسرين في جعل الخلافة في القرآن محصورة في الخلفاء الأربعة أمرين: أولها تبشير النبي ﷺ بقرب زمن وضع السلاح وشعور المسلم بالأمن على نفسه في أن يُعلن إسلامه دون خوف، ثانيها: ما أُثر عن النبي من تبشير بخلافة راشدة، فاستدعى المفسرون أجزاء من مرويات حديثية بشأن المستقبليات؛ لتعزيز فهمهم للآية، في محاولة لإضفاء قوة وترجيحا لفهمهم للآية الذي سرعان ما اكتسب عند المتأخرين سلطة وقداسة باسم

= سيرته وكمال عدله وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن.» تفسير ابن كثير. ج3. ص1320، 1321.

النص النبـوي الذي اعتمد عليه المفسّر، من مثل «زويت لي الأرضُ مشارقُها ومغاربُها وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زُوِيَ لي منها»[1]

وأغفل المفسّر أن المروية أتت بلفظ الملك، وأنها جزء من حديث طويل بـشّر وحذّر النبي فيه من أشـياء كثيرة، غير أن المفـسرّ في سياق استضعاف تاريخي يحتاج إلى رفع همّة المسلمين بمثل هذه البشرى، فاستقطع من النص ما يستـدل به على فهمه للآية، ولم يستوقفه ما تحملـه الرواية كاملة [2] من أن الحـرب متى وقعت بين المسلمين فلن تنته إلى يوم القيامة، وغيرها من الأمور التي تحمل في ظاهرها تناقضا مع نصوص أخرى مما يحتاج إلى تأويل.

فمن الواضح أنه استقرّ في عقل المفسر فهم للآية فذهب للمأثور يستدل به على ما في نفسه، مجتزأ من تنبؤات النبي ﷺ ما يؤكد قناعاته حول الآية، ومن ذلك الاجتزاء أيضا ما نقله المفسر من مرويّة حاتم الطائي مغفلا سياق

(1) وردت الرواية مختصرة في تفسير ابن كثير وشيخه ابن تيمية في كتابه. مجموع الفتاوي. ج5. ص473.

(2) «زُوِيَتْ لي الأرضُ حتَّى رأيتُ مشارقَها ومغارِبَها وأُعطيتُ الكَنزينِ الأصفرَ أو الأحمرَ والأبيضَ يَعني الذَّهبَ والفضَّةَ، وقِيلَ لي إنَّ مُلكَك إلى حيثُ زُوِيَ لَك وإنِّي سَألتُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ثلاثًا أنْ لا يسلِّطَ على أُمَّتي جوعًا فيهلكَهم بِهِ عامَّةً وأنْ لا يَلبِسَهم شيَعًا ويُذيقَ بَعضَهم بأسَ بَعضٍ وإنَّه قِيلَ لي إذا قَضيتُ قضاءً فلا مردَّ لهُ وإنِّي لنْ أُسلِّطَ علَى أُمَّتِك جوعًا فيُهلكَهم فيهِ ولَن أجمعَ عليْهِم من بينِ أقطارِها حتَّى يُفنيَ بعضُهم بَعضًا ويقتُلُ بعضُهم بَعضًا وإذا وُضِعَ السَّيفُ في أُمَّتي فلَن يُرفَعَ عنهم إلى يومِ القيامةِ وإنَّ ممَّا أتَخوَّفُ على أُمَّتي أئمَّةً مضلِّينَ وستَعبدُ قبائلُ مِن أُمَّتي الأوثانَ وستَلحَقُ قبائلُ من أُمَّتي بالمشركينِ وإنَّ بينَ يدَي السَّاعةِ دجَّالينَ كذَّابينَ قريبًا من ثلاثينَ كلُّهم يزعُمُ أنَّه نبيٌّ ولن تزالَ طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ مَنصورينَ لا يضُرُّهُم مَن خالفَهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.» صحيح سنن ابن ماجه. الحديث 3207.

الموقف الذي حكاه الراوي نفسه كعلة لتبشير النبي ﷺ له، فيحكى «أنه كان عندَ النَّبيِّ إذ أتاهُ رجلٌ فشكا إليهِ الفاقَةَ ثمَّ أتاهُ آخرُ فشكا إليهِ قطعَ السَّبيلِ وكانَ عَديٌّ قد وَفِدَ علَى النَّبيِّ ليدخلَ في الإسلامِ وخَشيَ النَّبيُّ أن يفُتَّ في عضُدِهِ و يُثَبِّطَهُ عندما يرَى مِن ضعفِ أهلِهِ وفقرِهم وعدَمِ انتشارِ الأمنِ في أرضِهِم حينذاكَ فألقَى بالبشاراتِ المذكورةِ في الحديثِ تَرغيبًا وتَثبيتًا. فقال: يا عَديُّ هَل رأيتَ الحيرةَ ؟ قال: لَم أرَها وقد أُنبِئتُ عنها قال: إن طالَت بكَ حَياةٌ لترَينَ الظَّعينةَ تَرتحلُ مِن الحيرةِ حتَّى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلَّا اللهُ وفي روايةٍ أنَّه لا يأتي علَيكَ إلَّا قليلٌ حتَّى تخرجَ العيرُ إلى مكَّةَ بغَيرِ خَفيرٍ قال عَديٌّ: قلتُ فيما بَيني وبينَ نَفسي فأينَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذينَ قد سَعَّروا البلادَ وأكملَ النَّبيُّ حديثَهُ إليهِ فقال: ولَئنْ طالَت بكَ حَياةٌ لتُفتَحَنَّ كُنوزُ كِسرَى قال: كِسرَى بنُ هُرمُزَ قال: كِسرَى بنُ هُرمُزَ ولَئنْ طالَت بكَ حَياةٌ لترَينَّ الرَّجُلَ يُخرِجُ مِلْءَ كفِّهِ مِن ذهبٍ أو فضَّةٍ يطلبُ مَن يقبلُهُ مِنهُ فلا يجدُ أحدًا يقبلُهُ مِنهُ.»[1] فالمعنى السياقي أو المقامي لحديث النبي ﷺ كما قال الراوي: «الترغيب والتثبيت»، فالرسول الكريم ﷺ أراد أن يبث معاني الأمل في نفس عدي بن حاتم والمسلمين بأنه رغم ما هم عليه من فقر وخوف واستضعاف سيكون الغنى، والأمن والمنعة.. بهذه الكلمات الثلاث يمكن أن نفهم الحديث كبشرى نبوية تتجدد في كل زمان، ومكان لم يربطها النبي ﷺ بحوادث تاريخية بعينها، و إنما ربطها المفسرون الأوائل، وظل المتأخرون ينقلون عنهم..

ومن أهم مرويات المفسرين في الاستدلال بالآية على تحديد الخلافة

(1) صحيح البخاري. الحديث 3595.

تاريخيـا، روايتي: «الخلافة بعدي ثلاثون سنـة ثم تكون ملكا» قال سفينة: أمسك عليـك خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشرا وخلافة عثمان ثنتي عشرة سنة وخلافة علي ستا، قال فوجدناها ثلاثين سنة. قَالَ سَعِيد: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ بَـنِي أُمَيَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْخِلَافَةَ فِيهِـمْ، قَالَ: كَذَبُوا بَنُو الزَّرْقَاءِ بَلْ هُمْ مُلُوكٌ مِنْ شَرِّ الْمُلُوكِ»[1]

وروايـة «تكـونُ النبوةُ فيكم ما شـاء اللهُ أن تكونَ ثم يرفعُها إذا شـاء أن يرفعَهـا ثم تكـونُ خلافةٌ على منهاجِ النبوةِ فتكونُ ما شـاء اللهُ أن تكونَ ثم يرفعُها إذا شـاء أن يرفعَهـا ثم تكونُ مُلكًا عاضًّا، فتكونُ ما شـاء اللهُ أن تكـونَ ثم يرفعُهـا إذا شـاء أن يرفعَها ثم تكـونُ خلافةٌ على منهـاجِ نبوةٍ ثم سكت..»[2]

فهم المفـسر من هذه الروايات أن حياة المسلمـين إلى يوم القيامة تنقسم حرفيـا إلى أربع كتل زمنية ضخمة: نبوة ثم خلافة راشـدة التي في آية سورة النور ثم ملك عضوض جبري ثم خلافة راشـدة لما تأت بعد.. وبناءً على هذا الفهم تأسست رؤية الخطاب الإسلامي المعاصر للتاريخ الإنساني في حتمية

(1) جامع الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، رقم الحديث: 2156، وأورده بلفظ غير هذا ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج5، ص92.

(2) رواية النعمان بن بشير «كنا قعودًا في المسجدِ وكان بشيرُ رجلاً يكفُّ حديثَه فجاء أبو ثعلبةَ الخشنيُّ فقال يا بشيرَ بنَ سعدٍ أتحفظُ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ في الأمراءِ فقال حذيفةُ أنا أحفظُ خطبتَه فجلس أبو ثعلبةَ فقال حذيفةُ قال رسولُ اللهِ ﷺ تكونُ النبوةُ فيكم ما شاء اللهُ أن تكونَ ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها ثم تكونُ خلافةٌ على منهاجِ النبوةِ فتكونُ ما شاء اللهُ أن تكونَ ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها ثم تكونُ مُلكًا عاضًّا فتكونُ ما شاء اللهُ أن تكونَ ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها ثم تكونُ خلافةٌ على منهاجِ نبوةٍ ثم سكت»

أن نعيش في ظل أنظمة جبرية مستبدة، وأن الخلافة الراشدة انتهت متمثلة في حكم الراشدين، وأننا في انتظار تحقق وعد الله بخلافة راشدة في آخر الزمان، ولا يخفى ما يحمله مثل هذا الفهم من استسلام وسلبية وجمود أبرز سمات العقل المسلم المعاصر، أو يؤدى هذا الفهم إلى إيجابية في غير موضعها عند البعض الآخر، فيكون الانحياز للجماعات في سعيها العكسي في غير اتجاه الزمن، فلا يتبعون مسار التطور الإنساني التقدمي إلى الأمام بل يقفون عند نقطة من الماضي يريدون الارتداد بالزمن إليها، في الخلف حيث دولة الخلافة بكل تفاصيلها التاريخية.

وهذا الفهم الحرفي الضيق الذي يرى الأزمنة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا أربعة عصور تاريخية لا تستقيم عقلا، فتعدد صور الحكم بين راشد يتوخى منظومة الإسلام القيمية، وغير راشد يُفسد، ويظلم تكررت، وستتكرر آلاف المرات في تاريخ المسلمين، فكل ملك من ملوك المسلمين في مسيرة الدولة القديمة المركزية المعروفة بدول الخلافة الممتدة لقرون يُمثِّل تجربة قائمة بنفسها يمكن أن نحكم عليها، وكذلك الأمر بعد انقسامها إلى دول، بل تجربة الولاة والأمراء قد تكون تجربة استخلاف أو ملك..

ومن جانب آخر إذا سلّمنا بهذا الفهم الحرفي لظاهر الحديث بحجة أنه هكذا قال النبي ﷺ فسنجد أنفسنا أمام رواية أخرى عند البخاري [1] تُقسّم الزمن تقسيما مختلفا: نبوة ثم خلافة ثم ملك ثم فساد إلى يوم القيامة؛

(1) «إنَّ هذا الأمرَ بدأ رحمةً ونُبوَّةً ثم يكون رحمةً وخلافةً ثم كائنٌ ملكًا عضوضًا ثم كائنٌ عتُوًّا وجبريةً وفسادًا في الأرض يستحِلُّون الحريرَ والفروجَ والخمورَ ويرزقون على ذلك ويُنصَرون حتى يلقَوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ.» البداية والنهاية ج8. ص21، شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. ج2. ص367.

فأي المرويات تقسيمها أولى إذا كنا سنتعامل مع التقسيم بدلالته الحرفية، لاسيما أن الرواية الثانية التي أسقطت الخلافة الراشدة، وجعلت الفساد إلى يوم القيامة أقوى سندا من الرواية التي يعتمد عليها خطاب الجماعات!! ومثل هذا الفهم الحرفي سيؤدي إلى أفكار خاطئة مثل اعتقاد يزيد بن النعمان بن بشير في زمانه أن خلافة عمر بن عبد العزيز هي الخلافة الراشدة المنتظرة في آخر الزمان. (1)

كما أن التمسك بهذه المروية سيجعل ما بعد خلافة الراشدين ملكا مستبدا، وليست خلافة إسلامية ناقصة كما وصفها ابن خلدون، مما دفع البعض لتضعيف المروية الحديثية لضمان سلامة رؤية ابن خلدون التاريخية. (2)

(1) «لما قامَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وَكانَ يزيدُ بنُ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ في صحابتِهِ، فَكَتب إليهِ بِهَذا الحديثِ أذَكِّرْ إيَّاهُ، فَقلتُ إنِّي لأَرجو أن تَكونَ أميرَ المؤمنينَ، يعني عمرَ، بعدَ الملكِ العاضِّ والجبريَّةِ، فأُدْخِلَ كتابي على عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فسُرَّ بِهِ وأعجبَهُ» (زين الدين العراقي. محجة القرب إلى محبة العرب. ص175. ط دار العاصمة الرياض الطبعة الأولى 1420هـ)

(2) «نرى أن هذا الحديث ضعيف، لأنه خبر واحد. أي مروي عن واحد، ونستبعد أن يكون النبي قد تنبأ بهذا، وإنما نرجح أنه قول مأثور لأحد التابعين أو لبعض المؤرخين، ومع ذلك فهو يعبر عن الاعتقاد السائد وهو أن الخلافة الحقيقية أو الكاملة استمرت ثلاثين عاماً، وهو عصر الخلفاء الراشدين، ثم تحولت إلى ملك. لكن لكي نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد الذي بينه ابن خلدون، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغير حصل في الأساس الذي قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغير إذن لم يكن كلياً ولكن جزئياً: أي أن الخلافة في العصر الأول كانت هي الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصره بقيت، فهي خلافة أقل في الرتبة، أو خلافة مختلطة بالملك.» (ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، ص 196، مكتبة دار التراث، الطبعة السابعة، 1979م).

وأرى أن الخلافة الراشدة في الروايات استخلاف إنساني عام كما أشار إليه الخطاب القرآني، وأنه يتعين تأويل الأحاديث وعدم تقييدها بحوادث تاريخية، أو التمسك بظاهر لفظها حتى لا يحدث تعارض بين المرويات، فأحاديث التبشير والتحذير مثل آيات الاستخلاف لا تحمل تحديدا ولا تخصيصا، ولا تحكي وقائع تاريخية بعينها، فمحاولات المفسر إسقاط المرويات على الواقع احتمالية، لا يملك أن يقطع بها، فكيف نجعلها يقينية مقطوعًا بها! كما أن تقييد معاني القرآن بوقائع تاريخية ينتهي عندها دلالة النص القرآني لا يتسق مع كونه خطابًا متجددًا لكل زمان ومكان.

وأن الخلافة ليست رجلا خليفة أو ملكا أو رئيسا بل فِعْل إنساني عام تعبد وعمران و إصلاح يشترك فيه الرعيّة والراعي معا، أو بلغتنا المعاصرة الشعب والنظام الحاكم معا. فالمرويات تحكي حالة متجددة متغايرة في المسار الإنساني بين استخلاف يصلح فيُحقّق مبادئ الإسلام، وملْك يركن إلى الأطماع فيُفسد ويهدر قيم العدل والحرية والمساواة وغيرها من مبادئ الإسلام، فكل ممارسة إنسانية تحترم مبادئ الإسلام وثوابته تُعد جزءًا من البُشرى النبوية، فالمعنى مرهون بالإنسان الذي يقيم مبادئ الإسلام أو نقيضها في الأرض.

ومن المرويات التي استند إليها المفسرون رواية ابن أبي عمر عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «لايزال أمر الناس ماضيًا ما وليهم اثنا عشر رجلا (وفي رواية خليفة) ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت أبي ماذا قال رسول الله ﷺ فقال: قال كلهم من قريش.»[1]

(1) صحيح مسلم، الحديث، 1821.

فأســس ابن كثير بفهمه لهذا الحديث عــلى وجوب وجود اثني عشر إمامًا ليسوا بأئمة الشيعة، وأن منهم الخلفاء الراشــدين الأربعة، الذين يمثلون معنى الاستخلاف والتمكين في آية سورة النور، وأن هناك خلافة موعودة -لما تأت بعدُ- ليكتمل عدد الخلفــاء إلى اثني عشر خليفة آخرهم المهدى المنتظر آخر الزمان..

وتناقــض ابــن كثير مع نفسه فمــرة أدخل فيهم بعض خلفــاء بني العبّاس في تفســيره لآية سورة المائــدة «وبعثنا منهم اثني عشر نقيبــا»[1] ومرة أخرى سكت عن خلافــة العباسيين فلم يدخل أحدا منهم في الخلافة الاثنا عشرية المبــشر بها في الحديث والتــي جعلها مراد الله مــن الاستخلاف في آية سورة النور.[2]

(1) «ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحا يقيم الحق و يعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره. (تفسير ابن كثير، ج3. ص92.)

(2)»في هذا الحديث دلالة على أنه لابد من وجود اثني عشر خليفة عادل وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء فأما هؤلاء يكونون من قريش يلون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الأمة متتابعا ومتفرقا وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم ما شاء الله ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ». (تفسير ابن كثير، ج٣. ص1320، 1321).

وأظن أن الحديث ليس إخبارا عن عدد حقيقي، فكما عدّ ابن كثير البَعْديَّة في قول النبي ﷺ «الخلافة بعدي» ليست على الحقيقة كان الأولى جعل العدد ليس على الحقيقة، فحصر المفسر الاستخلاف في مسار الإنسانية في تجارب محدودة مجموعها اثنتي عشرة آخرهم خلافة المهدي المنتظر آخر الزمان ضيق الدلالة الواسعة للآية، وجعل الكثير من ممارسات المسلمين الحضارية عبر تاريخهم كأنها لم تُوجد، والأولى جعْل كل تعمير وتعبد و إصلاح إنساني هو تحقيق لمعنى الاستخلاف القرآني.

من ناحية أخرى الحديث لا يحتمل دلالة واحدة كما فهمها ابن كثير، وتداولها الخطاب الإسلامي المعاصر، كأحد أخطر إشكالياته في تثبيت المعنى عند فهم بعينه وترويجه في صورة الدين المنزل، ففهم الحافظ ابن حجر العسقلاني يختلف عن فهم الحافظ ابن كثير الذي يرى البعدية في قول النبي ﷺ «الخلافة بعدي» حقيقية، وأن الخلفاء الاثني عشر[1] أتى زمانهم وانتهى، فالخلافة الراشدة -من منظور ابن حجر- امتدت من أبي بكر الصديق حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز المتوفي 101هـ بلا انقطاع، ولما كان المجموع أربعة عشر خليفة، أخرج خلافة معاوية بن يزيد، وخلافة مروان بن الحكم، فأبطل خلافتهما، ليكون مجموع الخلفاء اثني عشر، ويؤكد

(1) «فالأولى أن يحمل قوله «يكون بعدي اثنا عشر خليفة» على حقيقة البعدية، فإن جميع من ولي الخلافة من الصديق إلى عمر بن عبد العزيز أربعة عشر نفساً، منهم اثنان لم تصح ولايتهما ولم تطل مدتهما وهما: معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم، والباقون اثنا عشر نفسا على الولاء كما أخبر ﷺ، وكانت وفاة عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة، وتغيرت الأحوال بعده، وانقضى القرن الأول الذي هو خير القرون.» فتح الباري 13/ 260.

ابن حجر على صحة فهمه بحديث «**خير القرون قرني**»، فحكم الاثني عشر خليفة المتتالي يُعادل القرن الأول كاملا خير القرون بدلالة الحديث.

وأرى أن تمسّك المفسرين بحقيقة الأرقام في الأحاديث يحدث تناقضا بين كون الخلافة ثلاثين عاما، وكونها قرنا حتى تتحقق دلالة كونها في اثني عشر خليفة، وأظن أن المرويات -إذا سلمنا بصحة متنها- لا تحمل أكثر من كونها مبشرات بتداول التبليغ والدعوة للإسلام من جيل إلى جيل، وأنه ستدوم إمارة المسلمين منتقلة من أمير إلى أمير وليس العدد مرادًا في حقيقته، ولا تحمل كلمة خليفة في الأحاديث النبوية التي استشهد بها المفسرون دلالة شرعية؛ لأن كلمة خليفة تشكّل مفهومها السياسي وتطوّر في مرحلة تاريخية متأخرة بعد انتهاء الوحي، والمفسر يقرأ الآية القرآنية، ويستدعي الحديث بمفهوم استقر في عقله، وتشكّل وفق ثقافة زمانه وتجربة عصره مع دولة خلافة يستبشع واقعها، ومتمنيًا خلافة راشدة مفقودة تتوق نفسه إليها.

ويُعضد هذا الفهم ما قاله الدكتور بشار عوّاد [1] من أن الأحاديث التي ساقها مصنفو كتب الحديث في الإمارة ليس فيها أي تقنين لنظام الحكم، معقِّبًا على حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ» بأن الحديث صحَّحه الترمذي في الجملة، وحسنه هو في تعليقه على ابن ماجه من حيث السند، لكن متنه فيه نظر.. في عبارة «وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين» إذ كيف يُمكن إقرانُها بسنّة النبيّ ﷺ الواجبة

(1) بشار عواد معروف العبيدي الأعظمي البغدادي، مفكر ومؤرخ وكاتب عراقي ومحقق لقرابة ثلاثمائة مخطوطة، وصفه الشيخ أبو إسحاق الحويني بأنه أحد أئمة تحقيق الحديث النبوي.

الاتباع، فالنبي يُوحي إليه، ولا يقرّه الله على خطأ، بينما الخلفاء من بعده لا يُوحَى إليهم لا بتصحيح خطأ ولا غيره، كما أن تعبير (الراشدين) قد استعمل بعد انقضاء عهد الخلفاء الأربعة الأوائل؛ تمييزًا لهم عمّن جاء من بعدهم. فضلًا عن أنّ هذه العبارة ليس لها شاهد صحيح في الحديث النبوي، كما تشهد بذلك الصناعة الحديثية..

فلفظ خليفة كلمة استحدثت وصفا لرجل على رأس السلطة بعد وفاة النبي ﷺ، وكان يُمكن أن يُسمى بتسمية أخرى، ورغم ذلك صار هذا المصطلح ذا صفة دينية، وكأنه نظام وضعه الإسلام أو أمر به النبي ﷺ حتى صار نظام الخلافة مقدَّسًا عندَ الكثير من الجماعات قديما وحديثا.

ويرى الدكتور بشار عوّاد -مشيرا إلى روايتي «اثنا عشر خليفة»، و«اثنا عشر رجلا»- أن رواية الحديث جاءت بالمعنى، وأن هذا جائز ومعروف؛ لذا تعدّدت ألفاظ الروايات، فمجيء كلمة «خليفة» في أحاديث الفتن والتنبُّؤات وأشراط الساعة من قبيل الرواية للحديث بالمعنى، والكثير منها أحاديثُ ضعيفةٌ لا تصحُّ، والقليل الصحيح استعمل لفظ الخليفة بالمعنى الذي عُرف فيما بعدُ في عصر الرواة. [1]

وأرى داخل بنية خطاب المفسرين في فهمهم لكلمات: قريش، الأئمة، الخلفاء، الاثنا عشر تأثرا بالخطاب الشيعي، فإذا كان الشيعة قد قالوا بأن الإمامة نصيّة أي الإمام تمّ الإخبار عنه بالوحي نصًّا، فاشتراط أهل السنة كون الحاكم إماما قرشيا بدلالة الحديث هي نصيّة تتناقض مع قول أهل

(1) ينظر: د. بشار عواد معروف. مجلة الأزهر. ص2720:2722، ذو الحجة 1436هـ- سبتمبر، أكتوبر 2015م.

السنـة: الخلافة باختيار الأمة؛ لأنهـم عادوا وقيّدوا اختيارهـم بعائلة بعينها بقوة النص.

ومحاولـة المفسر ربـط تفسير الآيـة بالأحاديـث النبويـة متأثر بحرص الشيعـة على ربط قضية الإمامة بسلطة أعلى هي السلطة الإلهية، فلا تختلف المرجعيـة الشرعية للسنة عن مرجعية الشيعـة في الاستناد إلى وجود أئمة اثنا عشرية من قريش، فالنصوص واحدة تداولتها كتب السنة والشيعة. (1)

فالمفـسّر السنيّ كان تحت تأثـير الخطاب الشيعي الـذي يُخاصمه فكريا لكنه ليـس منفصلا عنه، فمثلما صنف المتكلمـون والفقهاء في باب الخلافة تحـت عنـوان الإمامة بتأثر مـن تنظير الشيعـة السابق عليهـم، كذلك تأثر المفـسرون بالشيعـة حين ارتفعوا بعهـد الخلفاء الأوائـل إلى منزلة قريبة من منزلة عهود الأئمـة المعصومين في الفكر الإسلامي الشيعي، فإذا كان للشيعة أئمة فللسنة أئمة هـم خلفاء الله في الأرض، ومن ثمَّ تشكلت الدلالة اللغوية المتأخرة لكلمة خليفة متأثرة بثقافة المفسر، فأصبح الخليفة الإمام والسلطان الأعظم، وارتفع المفسر بتلك الحقبة الزمنية إلى منزلة مثالية في حياة الإنسانية، فجرَّد من النتـاج البشري التجريبي المتطور تجربـة تاريخية أعطاها قداسة المطلق كأنهم عاشوا زمنا ملائكيا.

(1) من الأحاديث المعتمدة في كتب الشيعة «الأئمة من قريش»، «يملك اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»، «لا يزال أمر أمتي ظاهرا حتى يمضي اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش» ينظر: الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، الأمالي، ص387،388، ط. مؤسسة البعثة. طهران. الطبعة الأولى 1417هـ. وكتابه: الخصال، ص473،447، ط. مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين بقم. إيران. 1420هـ.

وفي الوقت الذي جعل المفسر فترة الخلافة الراشدة صورة ثابتة، كان الواقع التاريخي لها يقول شيئا آخر من اختلاف في الرؤى حول الكثير من المواقف والقرارات ابتداءً من اختلاف طريقة كل منهما في اختيار خليفته، وقرارات الحرب والمهادنة التي ظهرت في اختلاف أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حول حرب القبائل العربية الممتنعة عن الزكاة، وطريقة تقسيم الغنائم الذى استحدث فيها عمر نظاما يخالف ظاهر النص القرآني، وصنيع سابقه أبي بكر، مراعاة من عمر لمتغيرات الواقع الجديد في لفتة تُظهر تاريخية وزمنية بعض الأحكام، بل تبدّل الاتفاق إلى اختلاف في المواقف في أواخر عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم صراع واقتتال في عهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعا.

ولم تشمل الخلافة الإسلامية من منظور المفسرين كامل المسار التاريخي من خلافة أبي بكر وصولا لعصورهم، بل ميزوا عهود الصحابة الأربعة بالخلافة الراشدة، ورأوا ما عداها خلافة صورية وملكا جبريًا، ولا يخفى أن تمسك المفسر بالمروية في فهم الآية أبطل خلافة الأمويين والعباسيين، فهي ملك عضوض رغم أنها حققت نبوءة الحديث في التوسّع والمنعة، وكونها من أهم فترات ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع ساحتها شرقا وغربًا، إلا أن ذلك لم يشفع لها، فهي ملك جبري بقوة دلالة النص النبوي الذي استحضروه حتى أن الإمام أحمد بن حنبل اعتمد عليه في القول بكراهة إطلاق لفظ «الخليفة» على من جاء بعد الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمفسر استلهم تاريخ المسلمين الأوائل من مرويات الحديث، وليس من أحداثه، متأثرا في فهمه بشواغل عصره، وهمومه وما تتوق له نفسه من خلافة عادلة على منهاج النبوة لم يرها في الماضي القريب أو في واقعه الذي

تعاقب عليه خلفاء رأى فيهم ضعفا وظلما انتهى بالتفكك والانهيار؛ لذا ميّز خلافة الصحابة الأوائل عنهم بكلمة «راشدة».

فالخلافة الراشدة ليست لها دلالة شرعية دينية كما أوهم فهم المفسر بل وصف تاريخي استحدثه المفسر لفترة توّفر في أمرائها عدة خصائص ميّزتهم عن ملوك العرب من الغساسنة والمناذرة، وهي أنهم أقوياء وأمناء يميزون بين ملكيتهم الخاصة المحدودة والملكية العامة، والحرص على تحقيق العدل، وعدم جعل الحكم في عصبتهم بتوريث الحكم في ذويهم، فالخلافة ملك راشد على منهج النبي، حاول فيه الصحابة التزام مبادئ الإسلام في إمارتهم.

ولم يحمل إطلاق الخليفة على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دلالة جديدة تتجاوز الدلالة اللغوية في إنابة رجل في مهام خاصة حدّدتها عبارة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة «لابد لكم من رجل يلي أمركم ويصلِّي بكم ويقاتِل عدوَّكم»[1] هذه واجبات تلك اللحظة التاريخية، فبالإضافة إلى الإمامة في الصلاة وقيادة الجيوش تأتي ولاية أمر المسلمين، فهم في بدايات تجربة النبي ﷺ مع التحوّل من القبيلة بزعامتها العِرقية إلى إنشاء كيان جديد أقرب إلى الممالك المعاصرة في مركزيته لكنه يخضع لتعاليم الوحي العامة.

ولم يحمل لفظ الخليفة أي خصوصية اصطلاحية في الدلالة فسرعان ما تحوّل عنه عمر بن الخطاب بعد توليه الأمر بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى لقب أمير المؤمنين.[2]

(1) ينظر: الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (1/32) القاهرة. 1904م.

(2) «منذ عهد الخلفاء كانوا يسمون قواد البعوث باسم «الأمير»، وهو فعيل من الإمارة.. وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص «أمير المؤمنين» لإمارته على جيش=

واختيارهم لفظ الخليفة ثم أمير المؤمنين دون لقب «مَلِك»، لأنه مصطلح ارتبط في ثقافة عصرهم بالتسلط والسطوة، وليس أدل على ذلك من رواية سفينة،[1] فملوك العرب من الغساسنة والمناذرة عُرفوا بظلمهم وشدة بأسهم، واستحواذهم على مقدّرات الرّعية؛ لذا لم تخضع العرب في نجد والحجاز لملك، وأول محاولة ناجحة لجمعهم كانت من نبي.

وميّز سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين الخلافة والملك في كلمة واحدة هي التعفف عن المال العام أو بلغتنا المعاصرة «النزاهة المالية وعدم الفساد»، وقد عاصر سلمان نمط الملك قبل هجرته إلى المدينة و إسلامه و نمط الخلافة في عهد أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فيروى سلمان أن عمر بن الخطاب قال له: أَمَلِكٌ أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جَبَيْتَ من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر، ثم وضعته في غير حقه، فأنت ملك غير خليفة، فاستعبر عمر (أي بكى)». وعن سفيان بن أبي العوجاء قال: قال عمر بن الخطاب: والله ما أدري أخليفة أنا أم مِلك؟ فإن كنتُ ملكا فهذا أمر عظيم (أي بالغ السوء والخطورة). قال قائل: يا أمير المؤمنين إنّ بينهما فرقا. قال: ما هو؟

= القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ. واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «بأمير المؤمنين» فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به .. وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل «المدينة» وهو يسأل عن عمر، يقول: أين أمير المؤمنين؟ وسمعها أصحابه فاستحسنوه، وقالوا: أصبت والله اسمه؛ إنه والله أمير المؤمنين حقاً. فدعوه بذلك؛ وذهب لقبًا له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده.» (ابن خلدون، المقدمة، الفصل الثاني والثلاثون، ص 189)

(1) «إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْخِلَافَةَ فِيهِمْ، قَالَ: كَذَبُوا بَنُو الزَّرْقَاءِ بَلْ هُمْ مُلُوكٌ مِنْ شَرِّ الْمُلُوكِ » جامع الترمذي، (2156)

قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقا، ولا يضعه إلا في حق، فأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا و يعطي هذا. فسكت عمر.»[1] في إشارة إلى ملوك عصره.

و إن وصفت إحدى المرويات الخلافة بالملك، في حديث «زويت لي الأرض، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[2] إلا أن المفسرّ اختار خلافة راشدة، وليس ملكا رشيدا، كمحاولة لاستثناء فترة حكم الصحابة من المسار التاريخي، متجاهلا أن المسلمين في ذلك الوقت مثل غيرهم من الأمم والشعوب حين توحدت قبائلهم بدافع قوي من أخوة دينهم بدأوا ينقلون سنن الممالك في تسيير أمور الناس جندا ومالية وخراجا وغيرها.

ورشد الخلافة من منظور المفسِّر توجّه إلى شخص الخليفة بوصفه السلطة في ثقافة ذلك العصر، وأبرز مظاهر الرشد التي ميزتهم عن ممالك عصرهم العمل على تحقيق مبدأ العدالة والتساوي في الحقوق، الابتعاد عن النمط القبلي العائلي في توسع النفوذ والسلطة باستثناء عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمع طول حكمه وكبر سنّه استبد بعض ذويه بالنفوذ من أمثال مروان بن الحكم مما قلب الرعية عليه، وكان مقدمة لصراعات عُرفت تاريخيا بالفتنة.

والإشكالية أن الرشد تحوَّل إلى مرادف لكلمة مثالي، ثم أصبح صفة اجتماعية ملاصقة لكل من عاش الأربعين عاما الأولى من تاريخ المسلمين، وهذا يتنافى مع الطبيعة البشرية، فالتجربة الإنسانية تقول بأنه لا يوجد

(1) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (3/ 306)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (12/ 567).

(2) صحيح مسلم (7440).

مجتمع مثالي، والواقع التاريخي يؤكد ذلك، فالمجتمع الأول ضمَّ جميع ألوان الطيف مثل غيره من المجتمعات، غير أن تلك الفترة من التاريخ اكتسبت رفعة مكانة في نفوس المسلمين لمنزلة أصحابها وقربهم من النبي ﷺ، وهنا يتعين التمييز بين أمانة الصحابي في النقل عن النبي ﷺ، وحرصه على التأسي به التي أثنت عليها المرويات الحديثية ولا نتحدث عنها، وبين ممارساتهم الحياتية، وأفعالهم الإنسانية القابلة للقصور والأخطاء والنقد والمراجعة بما في ذلك السلطة بوصفها تجربة إنسانية يجتهد فيها فيصيب ويخطئ كما عرفوا هم بأنفسهم.[1]

فلم يكن مجتمع المسلمين الأول ملائكيا بل مجتمعا إنسانيا شهد من الجرائم ما نزل فيه الوحي مصوبا في حياة النبي ﷺ، وإخراج النبي ﷺ العرب من العصبية القبلية إلى الأخوة في الدين تحقّق في زمنه لكنهم ظلوا حديثي عهد بعصبية قبلية جاهلية، كان لها اعتبار في قرارات النبي ﷺ فيقول: «لولا أنَّ قومَك حديثُ عهدٍ بجاهليَّةٍ لهدَمْتُ الكعبةَ وجعَلْتُ لها بابينِ»[2] وظهرت بعد النبي ﷺ فكيف نتصور مثالية في حياة القبائل العربية في ظل حكم الخلفاء الراشدين؟!! وكأن الخلافة الراشدة لم تبدأ مسارها التاريخي بأكبر حركة ارتداد قبلي جماعي عن الإسلام، وامتناع قبلي جماعي عن أداء الزكاة بعد موت النبي ﷺ، حتى أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاش مرحلة تأسيس ثانية حتى تدين القبائل العربية بمنطق السلطة الموحدّة، وكأنه لم يُوجد أشرار استوجب شرهم أن يستحدث عمر بن الخطاب عقوبات جديدة كالحبس،

(1) ينظر: ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص224. ج4، ص214،215.
(2) صحيح النسائي، (2902).

وصولا لخلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في لحظة انقسام تاريخي بين مناصر له ومناصر لمعاوية وخارج على كليهما، فمجتمع الخلافة الراشدة لا يختلف عن غيره من المجتمعات الإنسانية في جمعه بين مختلف أنماط البشر، حتى مدينة النبي ﷺ لم تكن المدينة الفاضلة كما يروق للبعض أن يصوّر.. فيقول القرآن الكريم ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101].

واستمدت الثقافة الإسلامية المعاصرة من خطاب المفسر بسلطته التراثية القديمة مفهوم الخلافة الإسلامية في صورتها الأولى: خلافة راشدة محددة بالعقود الأربع الأولى تغير فيها الناس وتحوّلت المجتمعات، فتبدو فترة استثنائية عاش المسلمون تجربة المدينة الفاضلة سلطة ومجتمعا في كل مناحيها، ويتدارسون ذلك في صورة مواقف تنتقى من التاريخ، وتزخر بها كتب التراث؛ لذا تحوّلت الخلافة الراشدة من حلقة في مسيرة تاريخ إنساني يعتريه كل ما يعترى المجتمعات الإنسانية إلى حلمٍ يسعون للعودة إليه، ويتمنون أن يقترب تحقق وعد الله بإعادتها؛ ليتغير واقعهم، وهذا يُوضح علة الهروب المستمر لدي المسلم المعاصر من واقعه إلى تلك الفترة التاريخية حيث الصورة المتخيلة لدولة ملائكية بلا خلاف ولا ضعف ولا شائبة ظلم، إنه فردوس الخلافة المفقود..

وتوسعت الثقافة الإسلامية المعاصرة في فهم الاستخلاف والتمكين متجاوزة فهم المفسّر مع ازدياد تدهور مجتمعات المسلمين، فكانت الصورة الثانية للخلافة الإسلامية متمثلة في كل مملكة أو سلطنة امتدت عبر التاريخ من أمويين أو عباسيين أو أتراك حتى سقوط دولة العثمانيين 1924م. فظلت

لدولـة العثمانيين سلطـة دينية في نفـوس العامة رغم تدهـور أحوالهم فقرا وجهـلا وظلما وامتهانا في ظلها؛ وليس أدل على ذلك من واقع مصر المتخلف حضاريا - كولاية من ولايات الدولة العثمانية- وقت وصول الحملة الفرنسية إلى شواطئها؛ ليكتشف المصريون عمق وسعة الفجوة الحضارية بينهم وبين مستعمر غربي قـادم للبحث عن الموارد الطبيعية تحـت أقدامهم، وتحويلهم إلى سوق كبير..